

## فلسفة التعليم عند الإمام المجدد عبد الحميد ابن باديس The educational philosophy of the renewed Imam Abd al-Hamid Ibn Badis

كهد/ محمد مرغيت \*

جامعة أحمد دراية – أدرار

yahia2307@yahoo.com

History of the article/معلومات المقال		
Published/القبول للنشر 2020/06/30	Accepted/المراجعة 2020/02/14	Received/الإرسال 2020/01/06

### الملخص:

يهدف هذا المقال إلى بيان فلسفة التعليم في فكر رائد النهضة الإصلاحية في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس، فانطلاقا من الوضع العام الذي كانت تعيشه الجزائر في ظل السيطرة الاستعمارية، وما فرضته من قيود على حركة التعليم في الجزائر، صار المشهد الثقافي يئن من السياسة الثقافية للاستعمار الفرنسي، ولدى وضع ابن باديس خطة تعليمية استهدفت الوضع القائم من خلال تحديث أساليب التعليم ومناهجه، وترغيب الجزائريين في الاقبال على التعلم، من خلال اتباع اساليب تتناسب والواقع المعاصر مع اهمال الأساليب الكلاسيكية الجامدة، وبعث روح جديدة في نفوس الطلاب والتلاميذ، الأمر الذي أحدث ثورة تعليمية غيرت المشهد الثقافي في الجزائر حيث تخرج من المدرسة الباديسية رجال حملوا راية النهضة وساهموا في الحفاظ على أصالة الجزائر تراثها وهويتها.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد بن باديس، النهضة الإصلاحية، التعليم، الجزائر.

### Abstracter:

This article aims to explain the philosophy of education in the thinking of the pioneer of the reformist renaissance in Algeria, Sheikh Abdel Hamid bin Badis, as a result of the general trauma that Algeria was experiencing

\* المؤلف المرسل/ The author of the sender

under colonial domination, and the restrictions imposed on the education movement in Algeria, the cultural scene has become creaking from cultural policy For French colonialism, when Ibn Badis developed an educational plan that targeted the status quo by modernizing teaching methods and curricula, and motivating Algerians to be interested in learning, by adopting methods commensurate with contemporary reality with the neglect of rigid classic methods, and sent a new spirit in the hearts of students and students, which caused An educational revolution that changed the cultural scene in Algeria, where men who carried the banner of the Renaissance graduated from the Badisia School and contributed to preserving the authenticity and identity of Algeria's heritage and identity.

**key words:** Abdul Hamid bin Badis, Reformist renaissance, Education, Algeria.

### مقدمة:

إن عصر ابن باديس في جانب التعليم له ميزات خاصة من خلال التطور الحاصل في الحركة الثقافية التي ميزت القرن العشرين، وانفتاح العالم الإسلامي على العالم الخارجي واحتكاك المسلمين بأوروبا واستفادتهم من العلوم الحديثة والوسائل الجديدة، كما أن ابن باديس قد زواج في اهتماماته بين العلوم الشرعية واللغوية وبين العلوم الحديثة، إذ تجديد الدين وإحياء منهج القرآن والسنة وتقريب الإسلام وشرحه وتفصيله بمنهج علمي، يقتضي تهية النفوس لتقبل العلوم الأخرى المباحة، وصياغة عقل قادر على استيعاب العلوم الحديثة، لأن الإسلام بمفهومه العام دعوة إلى الدين والدنيا، وعليه فإنني سأحاول إبراز جهود ابن باديس في الحركة التعليمية وموقفه من التعليم في عصر بقيت المناهج التقليدية تتحكم في تحديد الاتجاه العام، وهذا يخص -طبعاً- العلوم الشرعية واللغوية، وهل كان لمصلحنا الجزائري آراء في تجديد التعليم وإصلاحه، وما مدى تطبيقه لآرائه في مجال التعليم؟ في مقابل مواجهة ثقافية مع المدرسة الفرنسية وأعاونها أصحاب المشروع التغريبي وكذا التقليدي.

### أولاً/ وضعية التعليم في عصر ابن باديس

إن الدراسات لوضعية التعليم في عصر الشيخ ابن باديس وتحديد المذهب الثقافي الذي يتحكم في الحياة الثقافية يجد أن هناك صراعاً حقيقياً بين ثقافتين، الأولى: أجنبية تشرف عليها

الإدارة الاستعمارية التي حاولت منذ 1830 فرض هيمنة الثقافة الفرنسية بمختلف الوسائل والأساليب. والثانية: عربية خالصة مستمدة خلفياتها الأيديولوجية من الحضارة الإسلامية ذات الخصوصية المختلفة عن الحضارة الغربية في قيمها ومبادئها وأبعادها، وبالتالي فإن المعركة بين أصحاب هاتين الثقافتين كانت مفتوحة وحاسمة في تقرير مصير الأمة الجزائرية في نهاية المطاف. والحق أن هذا الصراع الثقافي ظل مصاحبا لحركة الشيخ ابن باديس حتى وفاته، ولذلك فإننا أمام وضع معقد وصراع حقيقي حول تحديد المذهب الثقافي للمجتمع الجزائري بما يتماشى مع الخلفيات والقيم الحضارية للمجتمع في ظل استمرار سياسة الاحتلال التجهيلية، ومحاولة فرض النموذج الثقافي الفرنسي، وكذا استمرار المناهج الكلاسيكية التي قتلت روح الإبداع والتجديد في العقل الجزائري خاصة في العلوم الإنسانية، وكانت المدارس الرسمية والمؤسسات التقليدية (كالزوايا) تعيش آثار عبور الانحطاط الحضاري، وبالتالي فإن أي حركة تعليمية لا تستهدف هذه العقبات فإنها مضيعة للجهود والأموال. إن التعليم في عهد مصلحنا كان لا يخرج في الغالب على أربعة أنواع أساسية<sup>1</sup>:

### 1- تعليم تقوم به الزوايا

وهو تعليم تقليدي لا يرقى إلى مستوى تطلعات المجتمع المعاصر، وقد تعرض هذا النوع من التعليم إلى نقد لاذع من قبل المفكرين الفرنسيين والعلماء المسلمين أمثال ابن باديس، وكان أشهر من وجه نقدا موضوعيا للزوايا المؤرخ الفرنسي (الفرد بيل) الذي اعتبر تعليم الزوايا تعليما دينيا غامضا وتعليما صوفيا يعمل على الدمج في الله، كما تدعو كتب التصوف، وهو يعني بهذه العبارة عقيدة الحلول<sup>2</sup>، وإن كان انتقاده مبالغ فيه أحيانا، إلا أن المؤكد أن طريقة تدريس العلوم ما هي إلا حشو الأدمغة بالمتون العلمية، وحفظ القرآن دون فهم لأسراره وبلاغته، ورغم أنه وجد في عهد ابن باديس من دعا إلى تجديد وإصلاح الزوايا وجعلها تتماشى مع التطور المنهجي والنفسي، واستمرت هذه الدعوات إلى أن ظهرت المدارس الحرة الحديثة على يد بعض رواد الحركة الإصلاحية، وبقيت الزوايا محافظة على منهجها وأسلوبها في التعليم<sup>3</sup>، ولم تلجأ إلى إعادة تصحيح المسار التعليمي وفق مستجدات ومتطلبات الحالة الراهنة.

## 2- تعليم ينظم في الكتابية القرآنية

وهو تعليم بسيط يشرف عليه عادة المعلمون (أو الطلبة) الذين يقومون بتحفيظ القرآن الكريم، وبعض مبادئ العربية، دون شرح أو تفصيل أو توسيع في تفسير القرآن أو تعمق في أسرار اللغة، وبقي هذا النوع منتشرًا في البوادي (الأرياف) أكثر منه في المدن، وهو بمثابة مدرسة ابتدائية، ولقد درس الفرنسيون هذا التعليم منذ بداية الاحتلال، وخلصوا إلى أن هذا النوع من التعليم رغم بساطته، فإنه يعتبر تعليم قاعدي تبنى عليه الدراسات الإسلامية، وفي العالم الإسلامي كله، ولا يزال كذلك، وبالتالي استهدفه بوسائل وسياسات ممنهجة كتجريده من مؤسساته في المدن، وفرض الرقابة على المدرسين، وقطع التواصل بينه وبين المستويات الأعلى كالمتوسط والثانوي، وإصدار مراسيم بمنع تجاوز الحفظ إلى التفسير والتفهم، لأن ذلك يشكل خطرًا على التعليم الفرنسي ويكون سببًا لليقظة والشعور بالواقع، وهكذا أصبح هذا التعليم بعد هذا الحصار نوع من العبادة فقط، قبل أن ينشط من جديد ويتوسع في عهد الثورة الباديسية التي ربطت بينه وبين المدارس الابتدائية الجديدة المسماة بالمدارس الحرة<sup>4</sup>.

## 3- تعليم فرنسي عربي

وهذا النوع من التعليم تشرف عليها الإدارة الاستعمارية، وهو نوع من التعليم الموازي الذي فرضته سلطات الاحتلال الفرنسي منذ القرن التاسع عشر، وعرف تطورًا ملحوظًا، ويعرف بالتعليم المزدوج، ولم يكن له من غاية بالنظر إلى محتوى البرامج إلا صياغة وتوجيه جيل جديد من الجزائريين نحو الفرنسية وقطعه من جذوره، وإفساد الأسرة والمجتمع من ورائه، وعلى كل حال فإن الجزائريين منذ الاحتلال إلى غاية 1900 لم يقبلوا على هذا النوع من التعليم ولم يطالبوا به ولم يرو فيه فائدة حقيقية، قبل أن يقبلوا عليه مع مطلع القرن العشرين إثر تغير الواقع الجزائري وتطور الذهنية الجزائرية ودخول الجزائر مرحلة حاسمة من النضال والمقاومة، حينها أقبل عليه فئة من المجتمع بعد أن صارت لديهم قناعة بفائدته<sup>5</sup>. وبالنظر إلى تاريخ هذا النوع من التعليم فإنه على ثلاثة أنواع:

- منها المدرسة الحضرية - الفرنسية، فالمدرسة العربية - الفرنسية ثم المدرسة الخاصة بالأهالي، وكلها كانت مدارس في مستوى التعليم الابتدائي. وهناك المدارس الرسمية الثلاث، التي ابتدأت عربية خالصة، ثم انتهت مزدوجة. وهناك أيضا المدرسة السلطانية أو (الكوليج)، أسست للدراسة المزدوجة والعالية في الجزائر بإشراف فرنسي وإدارة فرنسية<sup>6</sup>.

مهما يكن من أسباب استحداث هذه الأنماط من التعليم ومؤسساته، فإن الغرض من ذلك هو تنفيذ مخططات الحكومة الفرنسية في السيطرة على الجزائر، ودمج شعبها إذا أمكن في الحضارة الفرنسية، وبالتالي فالهدف من اهتمام سلطات الاحتلال بالتعليم، وتسخير إمكانات مادية وبشرية، وإحداث وصاية تهتم بشؤون التعليم، إنما الغرض منه محو حضارة الإسلام من الجزائر، وسلخ مقومات الأمة وطمس هويتها، أو بمعنى آخر حسب - سعد الله - إبعاد الجزائريين عن أصولهم وتراثهم وسلخهم عن ماضيهم وإدخالهم في بوتقة الفرنسية بالذبذبة في البداية والحادية في النهاية<sup>7</sup>.

#### 4 - تعليم خاص بالفرنسيين

يمكن القول إن هذا التعليم يختلف إلى حد كبير عن الأنواع الأخرى من حيث الأهداف ونوعية التعليم ومستوى البرامج وعدد المدارس، ولم يعرف هذا التعليم أي صعوبة مادية ولا إدارية ولا مالية، وهو موجه إلى خدمة الجالية الفرنسية وإسعادها وتلبية حاجتها، ولم يكن للجزائريين من هذا التعليم إلا نصيبا ضئيلا، ما يعني وجود نوع من التمييز العنصري في التعليم<sup>8</sup>.

والحاصل أن هذه الأنواع من التعليم في عصر ابن باديس كانت كلها لا تخدم الأمة الجزائرية في دينها ولا دنياها، ولا تدفع بها إلى تكوين جيل من المتعلمين يحفظون للأمة كرامتها ويصونون عرضها، ويدافعون عن هويتها وحضارتها العريقة، ويكونون جيلا صالحا يقوم ببناء نهضة الجزائر وإخراجها من بوتقة الجهل والامية، وتسلب الاستعمار البغيض الذي استهدف الأمة في دينها ودنياها، فحاول صياغة مجتمع منسلخ عن مقوماته الحضارية ومنتكرا لتاريخ أسلافه الأجداد، فأى خير يرجى من هذا التعليم الذي لا ينهض بالأمة ويدفعها إلى الانعتاق من الجهل والتقليد

والتجهيل والتغيب، إلى الازدهار والتطور والنهضة والحرية، وهنا تبرز أهمية الثورة التعليمية الباديسية، ومشروع ابن باديس كان في رأينا الأنسب لتصحيح المسار الفكري للتعليم، وتحديد المنهج والموضوع والأسلوب، فهل استطاع ابن باديس من النجاح في مهمته الصعبة والخطيرة؟

### ثانيا/ اتجاهات التعليم في عصر ابن باديس

إن الجزائر وهي تحت الهيمنة الاستعمارية، قد شهدت حركة تعليمية نشيطة ومتنوعة، ونقصد بذلك أن العلوم الحديثة كان لها نصيب في العملية التعليمية سواء على مستوى المدارس الفرنسية المزروجة أو المدارس الفرنسية الخالصة، أو حتى في المشروع التعليمي الباديسي الذي أنشأ ما يسمى بالمدارس الحرة، وإن كان يغلب عليها الدراسات الشرعية واللغوية والتاريخية.

إن ابن باديس في تكوينه العلمي وثقافته الواسعة، واهتماماته المتنوعة يختلف إلى حد كبير عن كثير من علماء عصره، ولهذا فالشيخ عبد الحميد بن باديس رجل جمع إلى مهنة التعليم التريبة بمفهومها الشامل، كما جمع إلى جانب العلم العمل بما يعمل، وجمع إلى جانب الفكر العميق بمشاكل العصر ومتطلباته، أي أنه رجل قد جمع بين العلم والعمل في المجالات الاجتماعية والسياسية، والتربوية والإسلامية<sup>9</sup>، ومن هنا انفرد الإمام بشخصيته عن كثير من الشخصيات الإصلاحية في زمانه وقبله أيضا.

والحق أن الاتجاه العام الذي كان يحكم منهاج التعليم وبرامجه في عهده كان تقليديا وأظهر مظاهره العكوف على قراءة التراث الفقهي، وحفظ المدونات والمختصرات الفقهية دون تجديد أو تدليل أو تعليل لأحكامها وقواعدها، فهو وضع أشبه بعصور الانحطاط العلمي الذي شهدته الحضارة الإسلامية في العصور السابقة، ولذا فإن أول خطوة خطاها إمامنا ابن باديس في مشروع النهضة هو إحداث ثورة تعليمية حقيقية في المناهج والأساليب والبرامج، وقد كانت هذه الثورة في الواقع قاعدة انطلاق لمشروع النهضة الوطنية الإصلاحية وبداية عهد جديد في تاريخ الجزائر الثقافي.

لقد أدرك ابن باديس أن بناء أي نهضة حقيقية لا يقوم إلا على العلم، ومن هنا فقد اشتغل منذ البداية على تنويع العلوم المدرسة، وتحديد برامج تعليمية هادفة ووضع خطة بيداغوجية

محكمة، وإن كان في البداية قد صيغ أساسا كتعليم ابتدائي، إلا أنه ما لبث أن تطور إلى تأسيس المدارس الحرة، وتأهيل الطلبة لنيل الدرجات والشهادات، وكان ابن باديس مركزا في برنامجه التعليمي على تدريس المبادئ الضرورية للدين من عقيدة وتفسير وحديث، وتقديم تدريس قاعدي للعربية وعلومها<sup>10</sup>.

إن الناظر في الاتجاه العام للتعليم عند ابن باديس يجده تعليما عصريا يواكب التطورات الحاصلة في الفكر الإنساني ويحفظ الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري، وعليه فقد أولى عناية بالغة بالعلوم الدينية واللغوية، وضمت برامجه التعليمية تنوعا علميا شمل مختلف الفنون، كان على رأسها تفسير القرآن الكريم الذي أخذ من ابن باديس ربع قرن، كما اشتمل على تجويده وقراءة أحكامه، وكان للفقهاء المالكي حظ من هذه العملية التعليمية، وكذا العقائد الإسلامية السلفية والآداب والأخلاق الإسلامية، كما لم يغفل علوم الوسائل التي بواسطتها تفهم علوم الشرع، ونقصد بها علوم العربية وفنونها من نحو وصرف وبيان ولغة وبلاغة، إضافة إلى الفنون العقلية كالمنطق والحساب<sup>11</sup> والتاريخ والجغرافيا<sup>12</sup>، وإذا نظرنا إلى الكتب المدروسة نجد أنها كتب مختارة ومنتقاة بدقة بما يتناسب والمنهج البيداغوجي في العملية التعليمية: فمنها الموطأ في الفقه، أقرب المسالك كذلك، والرسالة في الفقه، وكتاب مفتاح الوصول في الأصول، وكتاب التنقيح، والسلم في المنطق، والمكودي، والقطر، والأجرومية في النحو والصرف، وكتب الداووين الشعرية كديوان الحماسة، والمنتبي، وكتاب الأمالي ومقدمة ابن خلدون<sup>13</sup>.

وهذا التنوع العلمي دليل على أن ابن باديس نفسه قد بلغ مبلغا عظيما في هندسة البرامج البيداغوجية، حيث ألمّ بالمصادر الثقافية الإسلامية، سواء في علوم المقاصد أو علوم الوسائل، وهو يشبه إلى حد كبير محمد بن عبد الوهاب النجدي في هذا الجانب، بل ويتجاوزه إلى الاهتمام بالعلوم الحديثة وإن كانت لا ترقى إلى المستوى المطلوب الذي يجاري مستوى التعليم الفرنسي، إلا أنه لم يغفل ذلك.

إن الثورة الثقافية التي أطلقها ابن باديس كانت من أهدافها المحافظة على الروح الإسلامية الجزائرية المهددة بالابتلاع من قبل الثقافة والفكر الفرنسي، وهكذا كان ابن باديس يعتقد أن

إرساء تكوين إسلامي خاص بالعربية لصالح الشبيبة على وعي بأنه يعكس طموح المجتمع الثقافية، ويحرص على ألا تكون مقطوعة عن ماضيها الإسلامي ولا مفصولة عن العالم العربي المعاصر.

14

والحق أننا إذا عاجلنا الاتجاه العام للتعليم في عصر ابن باديس بوجه عام، وفي إطار الجماعة الإصلاحية من خلال الظروف السياسية والثقافية، وكذا مستوى التعليم ومحتوياته وبرامجه وأهدافه ومؤسساته العصرية، وأعداد طلابه ونتائجه نجد أنها قد أدت أدوار تاريخية هامة، خاصة من حيث الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية وصقلها بصبغة تجديدية عصرية، فلم يقتصر على علم الفقه كما كان عليه أهل زمانه، بل توسع في علم الكتاب والسنة، واعتنى بالقرآن الكريم عناية فائقة، وغاص في أعماقه واستخرج منه الكنوز المعرفية والأسرار الشرعية والكونية، ودرّس علوم الحديث النبوي وبرع فيه، وجدّد المنهج التعليمي كما سنرى، ما يدل على عقلية متميزة وذهنية عبقرية، ورؤية مستقبلية استشرافية للواقع على المدى البعيد، لأن ما يعيشه ويعانيه ابن باديس يفوق بكثير ما كان سائدا في بعض الأقطار العربية، إنه الاستعمار وثقافته، والزوايا وثقافة التقليد والجمود، إضافة إلى ظاهرة العزوف عن التعليم من قبل المجتمع الجزائري الذي غلبت عليه الأمية والجهل، فصار ضحية الثقافات الوافدة والمناهج التقليدية البائدة.

وقد سلك ابن باديس في توجيه التعليم الوجهة الصحيحة مسالك عدة: أعظمها التدريس والحلق في المساجد، والدروس في الجمعيات والنوادي والخطب، إضافة إلى نشر بعض من ذلك على صفحات جرائده الإصلاحية المشهورة، ونظرا لتنوع شخصية ابن باديس العلمية فإنه خاض في مجالات عدة وطرق مواضيع متنوعة دينية وسياسية واجتماعية وثقافية.

إن من أهم المفارقات بين ابن باديس وغيره من علماء عصره أن الاتجاه العام في التعليم لذا ابن باديس كان أكثر تقدما وعصرنة، وهذا بحكم تطور المناهج العلمية، والبرامج التعليمية، وانفتاح العالم الإسلامي على أوروبا واهتمامه بالعلوم الحديثة إلى جانب العلوم الشرعية واللغوية، وابن باديس وإن لم يكن مشتغلا أو مدرسا لها فقد دعا إليها، ودعا إلى تعلم اللغات الأجنبية واستثمارها في نفضة المجتمع، وجعل بعضا منها في مقررات مدارس الجمعية، وانتخب لها بعض



المعلمين الأكفاء، ما يعني أنه كان ذو ثقافة متنوعة وإن غلبت عليها الثقافة الشرعية فقد اعتنى بالأخرى لأهميتها في بناء أي نهضة عصرية، وبالتالي نرى أن المذهب الثقافي الإصلاحى لم يكن من الوجهة العلمية منغلقا على كل ما هو أجنبي على العربية، وعليه فإن التعليم العربى الحر - حسب علي مراد- الذي كان ينشطه ابن باديس ورفاقه عبارة عن تعليم مكمل ووطنى في الوقت عينه، فكونه مكملا يعنى كان واجبا عليه أن يزيل الأمية والجهل عن شباب الأمة الذين كانوا محرومين من إمكانية إيجاد مكان في المدارس العامة، لكن فضلا عن هذا -يضيف- كان هذا التعليم ذا بعد وطنى بما أنه كان ينشد توحيد الأمة الإسلامية وإذكاء الإحساس بالخصوصية الجزائرية فيها<sup>15</sup>.

والحاصل أن ابن باديس قد نقل لنا التعليم العربى الإسلامى من ثقافة العكوف على إرث الأسلاف وتقليد واجترار أعمالهم، إلى مرحلة تنويع وتجديد وتصحيح المسار الفكرى للتعليم، وبعث فيه روح العصر بما يتوافق ومتطلبات الحياة المعاصرة، ويجب عن تطلعات الأمة، وبينى نهضتها على أسس ثابتة وقواعد متينة، ولهذا تعارف أهل الاختصاص ممن أرحوا للحركة الإصلاحية، بوصفهم حركة ابن باديس التعليمية بالثورة في مضمونها وشكلها وأسلوبها ومنهجها وبعدها.

### ثالثا/ أساليب التعليم ومناهجه

عرف التعليم في عصر ابن باديس طفرة نوعية من حيث الموضوع والأسلوب والمنهج، فبالنظر إلى نتائج الحركة التعليمية الباديسية ندرك سر نجاحها وتجاوزها العقبات الكثيرة التي واجهت المصلح الجزائرى في نشر العلم والحث على تعلمه، ولم يكن ابن باديس جامدا أو مقلدا بل أعتقد أنه كان مجددا ومبدعا في التأسيس لنهضة علمية وفق برامج بيداغوجية تتماشى والتطورات المعاصرة، وتتجلى العناية الباديسية بالتعليم في ذلك التنوع العلمى الذي زواج بين علوم الشرع واللغة وبين العلوم الحديثة، وإن كان ابن باديس قد أعطى علوم الشرع واللغة أهمية بالغة مقارنة بالعلوم الأخرى، وبما أنه قد أعاد النظر في البرامج التعليمية القديمة وانتقد -كما سنرى- التعليم في المدارس والمعاهد، فلا شك أنه وضع البديل الذي دفع حركة التعليم إلى الأمام

وعمل على تحقيق أهدافه العلمية. والواقع أن المتفحص لأساليب التعليم وطرقه عند ابن باديس يدرك أن الرجل قد أعطى روحا جديدة للحياة العلمية وشبّب التعليم، وحبّه لطالبيه بأسلوب علمي جذّاب، وأعظمها أنه كان يخدم الواقع ويعالج حياة الناس العملية ويجيب عن متطلباتهم ويضع لهم الحلول لمشاكلهم، كل ذلك مستلهم من القرآن الكريم والسنة النبوية، وعليه يمكن لنا أن نستنتج بعض الأساليب التي جدد بها ابن باديس التعليم عن طريق الاستقراء والاستقصاء بجهوده العلمي في خدمة وتجديد التعليم.

### 1- الترغيب في طلب العلم

كان ابن باديس يعتقد اعتقادا جازما أن سبيل النجاة من التيه الذي تعيشه الجزائر والعذاب المنوع الذي تذوقه الأجيال وتقاسيه إلا بالعلم، فهو الوحيد الكفيل ببناء أي نُهضة حقيقية، وأعظم العلم في فقه ابن باديس هو فقه القرآن والسنة، لأن أول ما أنزل من السماء على نبينا ﷺ كلمة "اقرأ" التي تدل على معنى "تعلم" يقول ابن باديس: "لا نجاة لنا إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه والتفقه فيه، وفي السنة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بمهديهم في الفهم عن رب العالمين"<sup>16</sup>، وإن كان ابن باديس يقصد العلم الشرعي فإنه لم يتغافل عن العلم الكوني وأهميته في التقدم والرقي، لأن القرآن حث على ذلك وأشار إليه في غير موضع من القرآن، لأن الحضارة في رأي ابن باديس لا تقوم إلا على الهداية القرآنية التي اشتملت على العلوم الشرعية والكونية، وبفضلها انبعث الأسلاف في خدمة العلم وبلغوا ما بلغوا من الحضارة، ومن هنا فدروس ابن باديس ومحاضراته وخطبه ومقالاته، كلها إرشاد وتذكير وحث على طلب المعرفة الصحيحة النافعة، وقد كان قدوة المتعلمين وأسوة الطالبين.

### 2- الاقتصاد في العلم وعدم التوسع فيه

وهذه من الأساليب التي وضعها ابن باديس في كيفية تثقيف هذا الجيل، وهذه الطريقة قد تقررت وبرجت قبل أن يبدأ مصلحنا في حركته التعليمية، وقد نبتت هذه الفكرة في أحضان مدينة رسول الله ﷺ، بينها الشيخ الإبراهيمي بقوله: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن

باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة سنة 1913 في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، إنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه" <sup>17</sup>، فابن باديس كان يهدف من وراء ثورته التعليمية إلى تكوين رجال وقادة يحملون عقيدة صحيحة وسليمة، وفكر مستنير، جيل قادر على تحمل المسؤولية، مسؤولية هذه الأمة التي وقعت ضحية مؤامرة استعمارية وطرقية، فكّكت وحدتها، وأفسدت دينها وديناها، وقطعت أوصالها وحرّفت تاريخها، فكان إمامنا ابن باديس يرى أن تكوين الرجال مقدّم على تأليف الأسفار، وقد نجح في مشروعه وحقق ذلك، وأخرج للأمة كوكبة من الفرسان، ونخبة من العلماء تعاونوا مع شيخهم على السير في طريق الدعوة والجهاد العلمي ونشر الفكر الصحيح والعقائد الحقّة وتطهير الدين من الشرك والبدع والخرافات، وقد أتت هذه الطريقة أكلها بإذن ربها، وتخرّج على يد هؤلاء قوافل من الشباب وقيال من الجند الذين هبّوا ولبّوا نداء الوطن سنة 1954 تاريخ الفصل والحساب بين استكبار فرنسا وإصرار أحرار الجزائر وشبانها.

### 3- ربانية ابن باديس في التعليم

ونقصد بذلك أن الشيخ ابن باديس كان يسلك مسلك التدرج في التلقين والتفهم، فكان يربي الشباب على صغار العلم قبل كباره، ووضع لهم من البرامج العلمية ما يعينهم على التدرج في طلب العلم والترقي في سلّمه، بحسب المستويات، وقد أفرد لكل فئة من الناس وقتاً يخصهم به، حتى العوام شملهم البرنامج اليومي للشيخ، وبالنظر للبرامج التعليمية للإمام ابن باديس ندرك مدى حرصه على تنفيذ وإنجاح خطته التدريسية وفق رؤية تربوية مبنية على قواعد علم التربية، وطرق التدريس العلمية التي يراعي فيها أهداف العملية التعليمية ومحتوى المادة العلمية ومناهجها.

إن فلسفة ابن باديس التربوية لم تكن قاصرة، أو ترى فيه ظاهرة إنسانية تقف عند مرحلة معينة أو تنتهي عند سن محددة أو مستوى معين، لأننا نعلم أن ابن باديس قد احتضن في مسجده الصغار والكبار، النساء والرجال، والهدف من ذلك تمكين الجميع من التكيف مع التحديات المعرفية داخل المجتمع ومن ثمّ مواجهة التغيرات الثقافية والاجتماعية المستجدة <sup>18</sup>.

#### 4- كتابة المقالات في الصحف

لعل هذا الأسلوب من وسائل نشر المعرفة الصحيحة في الفكر الباديسي، وهو وسيلة حضارية، فارق بها ابن باديس وفاق غيره من خلال تأسيسه لسلسلة من الجرائد والمجلات، تكون نافذة على المجتمع تنشر فيها عصارة أفكاره وعلمه، وقد أتحفنا فيها بأبحاث علمية شرعية خاصة، كانت موجهة لعموم الأمة وخاصتها، وكانت صحيفة "الشهاب"<sup>19</sup> لسان حال ابن باديس هي الواسطة بينه وبين أتباعه وأبناء الجزائر، الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بمدارس الجمعية أو حلقات ودروس الشيخ، فكانت افتتاحياتها تصدّر بتفسير آيات من القرآن الكريم، أو شروح لأحاديث سيد المرسلين بأسلوب علمي جمع بين البساطة والعمق، والتجديد والإبداع.

#### 5- أسلوب المناقشة في شرح مبادئ الحركة الإصلاحية

درج ابن باديس في حركته على تبليغها بأسلوب تراوح بين اللين والشدّة، وقد لجأ أحيانا إلى مناقشة خصوم الحركة بأسلوب علمي رفيع يدل على سمو فكره وعلو كعبه في العلم، وأحيانا تكون المناقشة في قالب ردّ على فكر منحرف أو سلوك غير مقبول كما هو الحال بالنسبة لظاهرة الطرقية، أو مناقشة بعض العلماء والمفكرين في قضايا علمية شرعية كان يرى فيها أن صاحبها جانب الصواب ولم يكن الحظ حليفه، كما في رده على شيخه الطاهر بن عاشور في مسألة القراءة على الأموات، أو رده على الطريقي ابن عليوة لما أساء الأدب مع النبي ﷺ وغيرها كثير، ولقد تراوح أسلوب الرد بين اللين والشدّة، بحسب الحال، والظاهر أن ابن باديس لم يكن يتسامح في موضوع العقيدة وما يتعلق بها من توحيد أو ضده، وكذا البدع وغيرها، بل وجدنا له ردودا قوية غلّظ فيها القول على أصحابها كما هو الحال بالنسبة لأتباع الطريقة العليوية والتيجانية.

#### 6- أساليب أخرى

في واقع الأمر أن استقصاء منهج ابن باديس وأساليبه في التربية والتعليم أمر قد يطول، وما يمكن أن نجمله في هذا السياق أن الإمام كان قدوة لطلابه، فقد كان يريهم على السلوك الحسن والأخلاق الفاضلة، لأنها مصاحبة للعلم وملازمة له، وكان يعلمهم القول الحسن ولزوم

الأدب مع الخالق والخلق، ومن منهجه التركيز على صقل عقول طلابه بالعلم النافع والعمل الصالح، والعمل على تهيئة شباب تكون له القيادة في المستقبل، وقد درهم على تحمل المشاق ومكابدة الصعاب، والصبر، وغرس فيهم روح الوطنية الحقّة، والإسلام الصحيح والعقيدة النقية، وسلك مع أتباعه مسلك الإقناع.

### الخاتمة:

والحاصل أن الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس مفكر بارع ومصلح خبير ومرب حكيم، استطاع أن يتغلغل في قلوب الناس فأحبوه، ووُضع له القبول في مجتمعه، لأنه لم يعيش لنفسه بل عاش للإسلام والعروبة والجزائر. فقد أحدث ثورة تعليمية شملت المناهج والأساليب والمضامين بعقلية ناقدة وهادفة، استطاع من خلالها تحقيق أهداف نوعية من خلال الأجيال الذين تربوا في أحضان مدارس الجمعية والعلماء الذين تخرجوا منها. ويظهر لنا من خلال هذا العرض أننا أمام شخصية علمية عرفت وجددت الأسس النظرية والعملية لأساليب التعليم وفلسفته وطرق تبليغه ونشره، وبناء قاعدة المشروع الإصلاحية عليه، كما يظهر عليه بعد النظر وصدق الحدس.

### الهوامش:

- 1- بوصفصاف عبد الكريم: حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس، ج1، الهيئة المصرية للكتاب، 2007، ص.437.
- 2- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص.177.
- 3- المرجع نفسه، ص- ص.178- 180.
- 4- المرجع نفسه، ص.36، 37.
- 5- المرجع نفسه، ص.287.
- 6- المرجع نفسه، ص.322.
- 7- المرجع نفسه، ص، نفسها.
- 8- عن الإحصائيات المتعلقة بعدد المدارس وتطور التعليم الفرنسي بالجزائر، وعدد التلاميذ الفرنسيين والجزائريين، أنظر: سعد الله: مرجع سابق، ص- ص. 290 - 321.

- 9- تركي رابح: الشيخ عبد الحميد ابن باديس، باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ط2، دار سوخم للنشر، الجزائر، 2003، ص.59.
- 10- Ali Merad, **la réformisme musulman en Algérie de (1255-1940)**, Essai d'histoire religieuse et social, (mouton et co), paris,1967p. 343, 344.
- 11- طالبي عمار: آثار ابن باديس، ج3، ط3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، ص.195.
- 12- المرجع نفسه، ص.229.
- 13- المرجع نفسه، ج3، ص. نفسها.
- 14- مرّاد علي: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ط1، ترجمة: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص.425.
- 15- المرجع نفسه، ص.425.
- 16- ابن باديس: التفسير، ج2، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمان محمود، دار الرشيد، الجزائر، 2009، ص.48.
- 17- أنظر: بوصفصاف عبد الكريم: مرجع سابق، ص. 438، نقلا عن مجلة مجمع اللغة العربية، العدد 21، سنة 1964، ص.21.
- 18- العياشي عمار: "الخطاب التربوي الباديسي قراءة في المجهود والمردود"، مجلة التراث العربي، ع/ 105، دمشق، السنة 27، كانون الثاني 2007، محرم 1428هـ ص.2.
- 19- أنظر دراستنا حول (الشهاب) وهي عبارة من رسالة ماجستير تقدم بها الباحث لنيل درجة الماجستير سنة 2003، الفصل الثاني. مرغيت محمد: موقف الشهاب من قضايا معاصرة، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2003/2002.